المدخل إلى .. السمانتكس

بقلم : امجد حسين
استاذ مساعد في قسم اللغات الاوربية
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

خلاصة

يلعب علم « السماتتكس » ، على حداثته ، دورا شديد التأثير في الحياة الثقافية والعامة • وحيث انه يكاد لا يوجد له مقابل حديث في اللغة العربية فان هذه الدراسة تقدم ـ اولا ـ عرضا تاريخيا ووصفيا له ، ثم تستعرض البواعث التي تستدعي تطبيق هذا العلم على اللغة العربية ، واخيرا تطرح امام اللغويين العرب جملة من المواضيع التي تصلح مادة لمثل هذا التطبيق المقترح •

مقدمة :

أحسب ان اهتمام الناس باللغة بدأ مع بدء اللغة اداة للتواصل بينهم ، واغلب الظن ان ذلك الاهتمام اتخذ في البداية شكلا بسيطا من اشكال الاتقاء لافضل الرموز التي تمكنهم من التعبير الأفضل عما يجول في افكارهم ، سواء كانت تلك الرموز اصوات اوحركات• ومن نقطة البداية تلك ، التي لم يتسن لمؤرخ ان يحددها بعد ، اتخذ الاهتمام بدراسة اللغة مسارات متشعبة ، متوازية احيانا ومتقاطعة احيانا ، ولكن صفتها العامةكانتمزيدا منالتخصص والتعقيد،وهاتان السمتان ـ اعني التخصص والتعقيد ـ لصيقتان بمسار التطور الحضاري العام للجنس البشري •

في وقت ما ، انحصرت ـ او كادت ـ دراسة اللغة بالفلاسفة والمناطقة • وانصب اهتمام هؤلاء على دراسة ذلك الجانب الذي كان يشكل عائقا امام التعبير الدقيق عن افكارهم ومحصلات تأملاتهم ـ اعني دراسة الالفاظ ودلالتها • كانت مشكلتهم ذات وجهين متكاملين : ان يجدوا اللفظ المناسب للفكرة سواء ضمن الموجود في اللغة القائمة او عن طريق السعي لنحت الفاظ جديدة تفي بغرضهم ، وبالتالي ان يضمنوا فهم السامع لما يقولون دون الوقوع في شرك التفسير المغلوط لما كانوا يسعون الى التعبير عنه •

واليوم ، لم يعد الانسان المعاصر بحاجة لان يكون فيلسوفا او عالم منطق لكي يهتم بمسألة اللفظ الدقيق في حديثه او كتابته ، بل ان هذا الاهتمام صار مسألة عادية جدا ، وان كان التزام الناس به متفاوتا بشكل كبير •

بيد ان انتقاء اللفظ الدقيق للدلالة على المعنى المطلوب ما هو الا جانب واحد من جوانب متعددة ينتظمها هذا العلم الحديث الذي اصبح يدعى علم « السماتكس »[1] ، والذي نأمل ان يكون عرضنا له خلال الصفحات التالية ذا فائدة لدارسي اللغات عموما والمتخصصين باللغة العربية خصوصا ، وصولا الى حث ذوي العلاقة لكي يسهموا في دراسة لغتنا الام على اسس العلوم اللغوية الحديثة •

تعاريف :

السماتكس فرع من الفروع الرئيسية لعلم اللغة ، وعلم اللغة هو ذلك العلم الذي يعنى بنظرية اللغة المعبر عنها بما يسمى بالعالميات اللغوية linguistic universals (اي المظاهر المشتركة بين جميع اللغات الطبيعية) • وتنطوي نظرية اللغة هذه على ثلاثة فروع : البراغماتيات pragmatics (اي الدراسة التي تدور حول الاشخاص الذين يستعملون اللغة) والسماتكس (اي الدراسة التي تعنى بالعناصر المكونة للغة من زاوية المعنى) ، والاعراب

(بمعنى علم تركيب الكلام) syntax (اي دراسة العلاقات الشكلية المتبادلة بين عناصر اللغة نفسها ـ اي الاصوات والكلمات)•

يقول وولپول Hugh R. Walpole بان « السماتكس او السماسيولوجى semasiology ، هو دراسة دلالات (معاني) الكلمات »[٢] اما غرى Louis H. Gray فيذكر بان السماتكس « يتناول نشوء (او تطور) دلالات الكلمات وكذلك اسباب استمراريتها وتفسخها واختفائها واحيانا انبعاثها من جديد ، بالاضافة الى الاسباب التي تؤدي الى خلق كلمات جديدة »[٣]•وفي الموسوعة البريطانية نجد هذا التعريف : « هو الدراسة الفلسفية والعلمية للدلالة »[٤] • في حين ان الموسوعة الامريكية تعرضه على النحو التالي : « السماتكس هو ـ١ـ علم دلالة الكلمة وهو ـ٢ـ نظام لتحليل الكلام القصد منه قيام تعبير ادق وضمان فهم افضل •والكلمه مشتقة من الكلمة الاغريقية semantikos ومعناها الدلالة ، وفي الاستعمال المعاصر تحل كلمة سماتكس محل كلمة سماسيولوجى المستعملة سابقا • ان عالم السماتكس المعاصر يدرس تاريخ الكلمات وحالتها الراهنة ، ويحلل قيمتها وقوتها ، ويكافحضد الميل نحو اللبس ambiguity الموجود ضمنا في طبيعة اللغة والعقل • وهو يشدد على حقيقة ان الكلمات لا تحمل معنى مفردا ثابتا لا يتغير ويصنفها وفقا لكل من الغرض من استعمالها واسلوب استعمالها • وهو يدرس اساليب البلاغة والمعاني المتعددة وطبيعة الكلمات »[٥] • اما مور Robert H. Moore فانه يقدم التعريف التالي للسماتكس : « هو دراسة الكيفية التي تقوم بها الكلمات بنقل المعاني (الدلالات) وصولا الى قيام التعبير الادق والتفسير الادق للمعاني من خلال اللغة »[٦] • ثم نجد عالم السماتكس الشهير هاياكاوا S. I. Hayakawa ينظر الى السماتكس من زاويتين : « ـ١ـ في المنطق الحديث ، يعنى السماتكس بدراسة القوانين والظروف التي

يمكن للاشارات والرموز ، بما فيها الكلمات ، ان يقال عنها انها ذات دلالة ، وكذلك دراسة انواع الدلالات التي يمكن ان تنقل ـ وهذا هو السميوتكس semiotics ، و ـ٢ـ دراسة الاستجابات البشرية للاشارات والرموز ، ودراسة العلاقة بين الكلمات والاشياء ، وبين اللغةوالسلوك،وهذا هو السيغنفكس significs »[٧]. واخيرا فان معجم وبستر يصنف السمانتكس الى ثلاثة : « ـ١ـ دراسة الدلالات ، بمعنى (أ) الدراسة التاريخية والنفسية وتصنيف التغيرات في دلالة الكلمات او الاشكال منظورا اليها باعتبارها عوامل في التطوراللغوي.(ب) اولا ـ بمعنى سيموتك semiotic ، وثانيا ـ فرع من السيموتك يعنى بالعلاقات ما بين الاشارات وما تشير اليه بما في ذلك نظريات الدلالة والتوسع والتسمية والحقيقة . و ـ٢ـ السمانتكس العام[٨] . و ـ٣ـ (أ) دلالة او علاقة الدلالات لاشارة ما او لمجموعة من الاشارات ، وبوجه خاص للدلالة الضمنية . (ب) استغلال التضمين واللبس (كما يجري في مضمار الدعاية) »[٩] .

السمانتكس : متى ، كيف وما هو :

من المعلوم لدارسي اللغة ان ثمة فرعين رئيسيين في اللغويات يعنيان بشكل خاص بالكلمة او المفردة ، وهما : الاتيمولوجى etymology اي دراسة اصول الكلمات[١٠] ، والسمانتكس اي دراسة معانيها . ومع ان العلاقة بين هذين الفرعين علاقة متينة الا ان الاتجاه العام نحو التخصص والمزيد من التخصص ـ كما سبق ان اشرنا ـ هو الذي عمل على نشوء علم السمانتكس الحديث مستقلا عما سواه او يكاد. وقبل ان ننهي اشارتنا الى علم الاتيمولوجى لا بد من التنويه الى ان الاساليب الاتيمولوجية في دراسة الكلمات ظلت منذ بدايتها اساليب غير علمية حتى حلول القرن التاسع عشر . وحينما شرعت تلك الاساليب تتوجه نحو العلم في القرن المذكور اخذت بالظهور ـ وفي ذات الحقبة الزمنية ـ بواكير الشعور بالحاجة الى وجود علم مستقل

يختص بالمعنى (وليس بالتقصي التاريخي للكلمات فقط) • وفي ذلك القرن الحافل جرى استعمال كلمة سماتتكس لاول مرة •

وعلى الرغم من تأخر نشوء هذا العلم ، فان من الانصاف للتاريخ التنويه الى حقيقة ان كتابات الاغريق والرومان احتوت ــ من جملة ما احتوت ــ على اشارات عديدة تنم عن اهتمام هؤلاء بالتغيرات التي تصيب المعنى وكيف ان هذه التغيرات تعكس التغيرات التي تحدث في ذهنية الناس ونفسيتهم • ومن ذلك نستشهد بفيلسوف الافلاطونية الحديثة بروكلس Proclus الذي قام في القرن الخامس الميلادي باجراء مسح عام لكل الميادين التي تؤثر في دلالة الكلمات وتوصل الى فرز عدد من هذه المضامير الرئيسية : كالتغير الثقافي ، واستعمال المجاز (الاستعارة) ، وميل المعنى نحو الاتساع او الضيق •• الخ • وهذه، كما سنرى ، لا تزال تشكل اجزاء هامة من السماتتكس الحديث وخصوصا لدى بريل Breal واتباعه •

اما ديمقراط Democritus فقد ميز بجلاء ضربين لما يسمى اليوم بتعدد المعاني او المعنى المتعدد multiple meaning فقد تحمل الكلمة اكثر من معنى ، او ــ بالعكس ــ قد تحمل اكثر من كلمة واحدة نفس الفكرة • ولا يزال هذا التمييز محتفظا بصحته، وبامكان القارىء ان يتمهل لحظة فيتذكر اكثر من شاهد على هذه الحالة •

ويعود الفضل الى ارسطو ، باعتباره من اوائل المفكرين الذين سلكوا اسلوبا منهجيا في البحث ، في تقديمه لاول تعريف دقيق للكلمة، اذ وصفها بانها اصغر وحدة ذات معنى في الكلام • كما انه ميز نوعين من الكلمات : تلك التي لها معنى وهي بمعزل عن غيرها in isolation والكلمات التي هي مجرد ادوات نحوية • وهل يساور احدا شك في صحة هذا التصنيف حتى بعد اربعة وعشرين قرنا من صدوره ؟

في اواخر القرن السابع عشر نجد الفيلسوف الانكليزي جون لوك Locke يبحث في طبيعة اللغة والاخطار الشديدة

الناجمة عن سوء استعمالها ، بل انـــه يستطرد فيقترح طرائق تتيح للكلمات ان تقوم بنقل ادق للافكار • ويستنتج لوك بان جزء كبيرا من سوء استعمال اللغة ينشأ من الاسلوب الخاطىء الذي ينشأ الاطفال عليه عند تعلمهم الكلمات ومعانيها • ولكي يصار الى استعمال اللغة بصورة دقيقة يرك لوك انه يتعين ان تقترن الكلمات بافكار واضحة •

ومع كل ما تقدم ، فالمرجو الا ينصرف الـــذهن الى تصور ان المساهمة الاغريقية ــ الرومانية وغيرها في مجال الكلمات ودلالاتهـا قد لعبت دورا حاسما في ظهور السماتكس الحـديث • صحيح ان لتلك المساهمات فضلا لا ينسى ، هو فضل الريادة ، غير ان ثمـــة عاملين على وجه الخصوص كانا (وعلى وجه التحديد في النصف الاول من القرن التاسع عشر) بمثابة النواة الحقيقية التي ادت فيما بعد الى نشوء علم مستقل بالمعـــاني : اولهما ــ ظهور فقه اللغـــة المقارن comparative philology وعلـم اللغويـــات linguistics بمفهومه العلمي الحديث[١١] • ومع ان مجال بحث هـــذين العلمين تركز اساسا على التغيرات والتطورات في الجوانب الصوتية والنحوية للغة ، الا ان العلماء سرعان ما فطنوا الى الحاجة الى استكشاف جانبها الدلالي • اما ثاني العاملين فقد كان مصدره الادب ، وبالذات الاثـر الذي خلفته الحركـــة الرومانسية • فمعروف لكل دارس للادب الرومانسي ولع كتابه وشعرائه المفرط بالكلمات كمفردات ، تتسـاوى في ذلك لديهم بائدتها وحديثتها ، فصحاها ودارجتهـــا ، في مختلف اللهجات[١٢] • ولكـــن ، حينما اعيت هؤلاء الكتـــاب والشعراء الرومانسيين الخصائص العجيبة للكلمات التي كانوا يستعملونها فانهم يموا صوب فقهاء اللغة لاسعافهم •

منذ حوالي العام ١٨٢٥ فما تلاه ، شرع احد الاختصاصيين الالمان بالكلاسيكيات وهو رايزيغ C. Chr. Reisig ، ينشيء مفهوما جديدا للنحو انطوى ــ في آخر الامر ــ على تقسيم النحو الىفروع ثلاثة : فرع اسماه السماسيولوجى semasiology اي دراســـة المعنى ، والفرعان الآخران همـــا الاتيمولوجي والاعراب (بمعنى علم

تركيب الكلام) syntax • ويقدر ما يتعلق الامر بموضوع بحثنا هذا ، فاننا نكتفي بالاشارة الى ان رايزيغ اعتبر السماسيولوجي نظاما تاريخيا يسعى لتحديد « المبادىء التي تحكم تطور المعنى » • واستجاب لمبادرة رايزيغ عدد من زملائه الالمان الذين وجدوا في هذا النهج الرد اللازم ازاء الانغمار المفرط في نواحي الشكل في دراسات فقه اللغة خلال الحقب السابقة • غير ان انتشار هذه الافكار ظل محصورا ضمن نطاق ضيق جدا في بادىء الامر •

ولم يشهد السماتكس انطلاقة جادة الا بعد ان نشر العالم الفرنسي بريل Michel Breal مقالة في العام ١٨٨٣ في احدى المجلات التي تعنى بالشؤون الكلاسيكية وضع فيها الخطوط العريضة للعلم الذي اعتبره هو جديدا واطلق عليه الاسم الذي لا يزال يعرف به حتى الان : السماتكس • ومما جاء في تلك المقالة قوله : « في الحقيقة ، ان اغلب اللغويين ركز اهتمامه على هيئة الكلمات وشكلها (صورتها) • اما القوانين التي تحكم التغيرات في المعنى ، واختيار التعابير الجديدة ، وولادة المصطلحات واندثارها ، فانها تركت في الظلام او انها لم تنل سوى اشارات عابرة • وبما ان هذه الدراسة ، شأنها شأن علم الصوتيات phonetics وعلم الصرف morphology قمينة بان يطلق عليها اسم ما ، فاننا سندعوها سماتكس ، اي علم المعنى »[١٣] • وفي العام ١٨٩٧ نشر بريل كتابه الشهير Essai de Semantique الذي لا يزال يعتبر حتى اليوم حجر الاساس في السماتكس • وفي الفصل المخصص لشرح هدف الكتاب يكرر بريل ما يوحي بانه هو الذي نحت كلمة سماتكس لاول مرة : « وعليه، فانني ارجو من القارىء ان يعتبر هذا الكتاب مجرد مدخل الى العلم الذي اقترح ان تكون تسميته : سماتكس »[١٤] •

ويقول بريل انه يستهدف دراسة الاسباب العقلانية التي اثرت في التحولات التي طرأت على لغاتنا[١٥] • ولكي يحقق هذا الغرض وفق اسس منهجية قام بترتيب هذه الحقائق ضمن اطار ما اسماه بـ «القوانين»: فهناك، مثلا، قانون التخصص Law of Specialization

اي ظاهرة انتقال دلالة اللفظ او الاستعمال من العام الى الخاص. ففي الانكليزية ، على سبيل المثال ، تم حصر الدلالة على التملك والاضافة باستعمال حرف الـ s وكلمة of بدلا من تعدد الادوات وعموميتها .

وينطبق الشيء نفسه على تصريف الافعال conjugation . ففي الالمانية ثمة ما يناهز الاثني عشر بابا للتصريف (حسبما احصاه غريم Jacob Grimm) (١٦) ، وتحتفظ الانكليزية بنفس العدد بشكل او بآخر . الا اننا نلاحظ في الانكليزية الحديثة ميلا متزايدا لاستعمال الفعل do (وخصوصا في صيغته المضارعة do و does والماضية did) بدلا من صور التصريف لكل فعل من الافعال الهائلة العدد في اللغة الانكليزية . فاذا سئل شخص هذا السؤال :

Did you take the car and go to the market and buy everything you needed?

يأتي الجواب ببساطة :

Yes, I did.

وفي الجملة الجوابية هذه يحل الفعل did محل الصيغة الماضية للفعلين take و go .

اما القانون الآخر الذي يشير اليه بريل فهو قانون التمييز Law of Differentiation ، ويتناول فيه الالفاظ المترادفة او التي تبدو كأنها مترادفة ، وبالتالي تنمو ـ اثناء الاستعمال وفي غضون عشرات او ربما مئات من السنين ـ نحو التمايز عن بعضها في دلالتها . فالكلمات الانكليزية esteem و respect و venireation تبدو مترادفة ، او على الاقل ليس ثمة ما يميز احداها عن الاخرى من الناحية الاتيمولوجية . ولكنها في الاستعمال غير مترادفة بالتأكيد ، وقد نشأ هنا تدرج في معانيها على امتداد عدد غير معروف من السنين .

ويعرض بريل قانونا آخر هو قانون الاشعاع او الانتشار radiation وبه يعني نقل ظاهرة لغوية من لغة الى اخرى ، ويكون النقل اما سليما او مغلوطا ، ثم يركز بحثه حول جوانب محددة في اللغة مثل البواديء واللواحق inflections والمحاكاة analogy واندثار الصيغ عديمة الفائدة .

وفي الجزء الثاني من كتابه يحدثنا عن الكيفية التي تتحدد بها دلالة الكلمات كميلها الى الاختفاء نتيجة لعدم استحسان الناس لمعانيها او الى الاضمحلال او الى الصمود والبقاء وغير ذلك . ثم يناقش محدودية الدلالة وتوسعها والمجاز والاستعارة والمجردات والكيفية التي تسبغ بها الاسماء على الاشياء . اما الجزء الثالث فيتحدث فيه عن الكيفية التي يتشكل فيه تركيب الكلام ، من كلمات الى شبه جمل الى جمل .

وفي ختام هذا العرض السريع لكتاب بريل النفيس لعل من المناسب اقتباس المقطع التالي الذي يوجز فيه ، بفصاحة ، اهمية دراسته الرائدة ، مع الاخذ بالاعتبار طبعا عامل الزمن الذي ظهرت فيه الدراسة : « احسب انني على حق في قولي بان تاريخ اللغة حين يقترن بقوانين عقلانية ، لا يكون اكثر صدقا حسب ، بل اكثر امتاعا ايضا . ولا يمكن ان يكون مدعاة لعدم المبالاة ان نلاحظ ـ عبر الصدفية الظاهرة التي تحكم مصير كلمات اللغة وصورها ـ ظهور قوانين تقترن في كل حالة بخطوة الى الامام يخطوها العقل . ان للفيلسوف والمؤرخ ولكل انسان يراقب تقدم الانسانية متعة معينة في تمحيص هذا المسار الصاعد للعقل الذي يمكن تلمسه في التجدد بطيء الخطو للغات »[١٧] .

يتضح لنا مما سبق ان بريل ، كسلفه الالماني رايزيغ ، اعتبر السماتكس بمثابة دراسة تاريخية محض للكلمات ودلالاتها . وبقي هذا الفهم سائدا مدة من الزمن بعد ذلك . وفي ذلك يقول د. ابراهيم انيس : « ان دراسة اللغويين للدلالة .. قد اقتصرت على الناحية

التاريخية الاشتقاقية للالفاظ ، كأن تقارن الكلمة بنظائرها في الصورة والمعنى حتى يتسنى ارجاعها الى اصل معين تفرع الى عدة فروع في لغة واحدة او اكثر من لغة ، ولم تتجه عناية الدارسين حينئذ الى الجانب الاجتماعي واثره في تطور الدلالات والصور ، ولا الى المظاهر الانسانية الاخرى ذات الاثر البين في تغيرها وانحرافها ، اي انهم عنوا بالعناصر الداخلية في الالفاظ ولم يفطنوا الى العوامل الخارجية عنها »(١٨) .

وعلى الرغم من اهتمام اللغويين بكتابات بريل واسهامه الرائد ، الا ان الباحث سيجد ان بريل حصر مناقشاته ـ عموما ـ في اطار دلالة الالفاظ دون التوسع الى مضمار الكيفية التي يستطاع بها نقل هذه الدلالات بامانة ودقة. ولهذا نجد هاياكاوا يرجع اصل السماتكس الحديث الى علم السيغنفكس significs الذي ابتدعته الليدي ولبي Viola Welby (ومعناه : علم المعنى او دراسة الدلالة مع اقتران ذلك بايلاء قدر كاف من الادراك لجانبه العملي باعتباره طريقة من طرائق العقل) والى كتاب *Principia Mathematica* للفيلسوفين الرياضيين برتراند رسل Bertrand Russell والفرد وايتهد Alfred N. Whitehead. ومع ان هذين العالمين اهتما اساسا بمسألة حل التناقضات المنطقية في الرياضيات الا ان اثرهما في جوانب الثقافة الاخرى كان كبيرا . وقد محضا دعمهما لنشوء ما سمي بالوضعية المنطقية logical positivism في الفلسفة التي كان فتغنشتاين Ludwig Wittgenstein احد ابرز اعلامها وهو القائل : « ان اغلب المسائل والاطروحات التي يتناولها الفلاسفة ناشئة من حقيقة كوننا لا نفهم منطق لغتنا » .

من هذه البدايات نرى ان المهتمين بالسماتكس اخذوا يحررون انفسهم من الانحباس ضمن شباك البحث في فروع البلاغة العتيقة دون غيرها ، وجعلوا يممون صوب فروع المعرفة القريبة منها ـ كالفلسفة وعلم النفس والاجتماع وتاريخ الحضارت والادب ـ واضعين

نصب اعينهم هدف الحصول على استيعاب اعم وفهم اشمل للعمليات والتغيرات الدلالية • وقد تبلور هذا الاتجاه بشكل جلي خلال العقود الثلاثة الاولى من القرن الحالي •

في العام ١٩٢٣ ظهر كتاب هام في تاريخ السماتكس الحديث هو (معنى المعنى) *The Meaning of Meaning* لمؤفيه اوغدن C. K. Ogden وريتشاردز I. A. Richards وفيه يناقش المؤلفان جميع الجوانب التي تندرج اليوم تحت اسم السماتكس • يقول المؤلفان انهما يحاولان : « اولا ــ بيان ماهية المعنى ، وثانيا ــ الكيفية التي تنتقل بها المعاني ، وثالثا ــ وضع الخطوط العريضة للطرائق التي يمكن بواسطتها نقل المعنى بصورة ادق »[١٩] • وقد اسهم هذان الكاتبان اسهاما كبيرا في وضع الاسس الحديثة للسماتكس ، كما يتبين ذلك للباحث من مراجعة مؤلفاتهما[٢٠] •

وعن ابرز الانجازات في هذه الفترة اطروحة العالم الفيلولوجي السويدي شترن Gustaf Stern الموسومة (المعنى وتغير المعنى، مع الرجوع بوجه خاص الى اللغة الانكليزية) وقد ظهرت في العام ١٩٣١ • وفي العام نفسه ظهر مؤلف آخر دشن مرحلة جديدة في تطور السماتكس ، الا وهو مخطوطة تريه Jost Trier حول مصطلحات المعرفة والذكاء في اللغة الالمانية • وقد وضع تريه بحثه هذا مستهديا بمباديء العالم اللغوي السويسري الشهير دى سوسير Ferdinand de Saussure ولكي نستوعب هذا التطور الجديد لا بد من القاء نظرة ــ ولو سريعة ــ على طبيعة المساهمة التي قدمها دى سوسير اولا • ففي كتابه *Cours de Linguitique Generale* حرق دى سوسير الجسور مع النهج الذي درج عليه السابقون في الدراسات اللغوية ، اي النهج التاريخي المحض الذي كان سائدا خلال القرن التاسع عشر ــ كما سبق بيانه في هذا البحث ــ وقال ان ثمة منهجين لدراسة اللغة مختلفين في الاساس ومتكافئين في صحتهما : الاول ــ منهج وصفي او متزامن synchronic

يقوم بعملية تسجيل لعلم اللغة على النحو الذي هو فيه في وقت معين وبصرف النظر عما سبقه ، والثـــاني ــ تاريخي diachronic يقوم بتتبع تاريخ نشوء عناصر اللغة المختلفـة • (يطلق الـدكتور عبدالرحمن ايوب على هذين المنهجين اسم « العلاقات المتعاقبـة » و « العلاقات المتعاصرة » على التوالي)[٣١] • وقال بان هذين المنهجين متكاملان ، ولكنه حذر من الخلط بينهما • ومن جانب آخر ، نظـر دى سوسير الى اللغة باعتبارها كلا منظما او كشتالت Gestalt تكون عناصره المختلفة معتمدة على بعضها ويستمد كل منها دلالتـه واهميته من النظام ككل • ومعروف ان هذه النظرة الى اللغـة (اي اعتبارها نظاما متداخلا ومترابطا) هي التي مهدت الاساس لما غـدا اليوم يعرف بفقه اللغة التركيبي Structural Linguistics .

في هذه الفترة ــ اي بين الحربين العالميتين ــ صار للسماتتكس اسم معروف وصوت مسموع ، وجعل اهل الاختصاص ــ كل في اطار اختصاصه ــ يعيد النظر في افتراضاته واسسه النظرية السابقـة على ضوء هذا العلم الجديد والعلوم الحديثة التي زامنته • وسرعان مـا اخذ المراقبون والمنغمرون في الامر على حـد ســواء يلاحظون ان السماتتكس بدأ يتبلور حول قطبين يكاد التمييز بينهما يكون غـائما في الوهلة الاولى ولكنه لم يلبث ان انجلى وبانت معالمه كلما اتسعت وتعمقت الابحاث والدراسات : القطب الاول ــ اقتصر على السماتتكس اللغـــوي Linguistic Semantics • والآخر ــ شمل ما اصبح يدعى بالسماتتكس العام General Semantics .

ان السماتتكس العـام هو الاسم الذي اطلقـــه كورزيبسكي Alfred Korzybski [٣٢] على فرع جديد من فروع الثقافـة والتعليم يطمح الى اقامة الحياة اليومية للناس على اساس من اصول العلم الحديث • كيف ؟ يرى كورزيبسكي (شأنه شأن دارسي اللغات المحدثين الآخرين) ان : « لغة الحياة اليومية تشوبهـا اعتقـادات وافتراضات غير علمية [٣٣] وبدائية • وان سلوكنا الآني وردود فعلنا

اليومية تتحكم فيها الى حد كبير الافتراضات غير العلمية المبثوثة في ثنايا لغتنا »[٢٤]. اذن ، فثمة فجوة بين السلوك اليومي للناس والعلم الحديث او ـ على وجه ادق ـ بين سلوكهم والاسلوب العلمي الحديث ، ومنشأ هذه الفجوة ـ في رأي كورزيبسكي والذين تبعوه وطوروا آراءه ـ يكمن في عيوب اللغة اليومية وابتعادها عن العلم الحديث . واصدر كورزيبسكي كتابه (العلم والعقل) في العام ١٩٣٣ ليعالج ضعف التواصل بين بنية العالم والجهاز العصبي للانسان والاثر الذي يتركه على الفرد استعمال لغة تتسم بضعف التواصل هذا . ففي حياتنا اليومية لا تزال انماط الاستجابات البشرية خاضعة الى درجة كبيرة الى ميتافيزيقيات اسلافنا في اللغة . اذن ، ما هو طريق الخلاص، في رأي كورزيبسكي ؟ يكون ذلك عن طريق تمكين الناس من الافلات من طغيان العادات اللغوية المتوارثة بواسطة تعرية الافتراضات المغلوطة التي تنطوي عليها تلك العادات ومن ثم ازاحتها واحلال الافتراضات العلمية الحديثة مكانها وجعل الاخيرة اساسا للسلوك اليومي .

وفي سياق تبيان تلك الفجوة التي اشرنا اليها قبل قليل ، يشير كورزيبسكي الى « النظرية النسبية وميكانيك الكم quantum mechanics والكيمياء الغروانية colloidal chemistry ودراسات الجهاز العصبي والمنطق الرياضي باعتبارها ادلة على الثورة ضد ما اسماه (العادات التقييمية الارسطوية) Aristotalian evaluation habits »[٢٥]. وهاجم ثلاثة افتراضات لارسطو : (١) الادعاء بان المبتدأ والخبر (او المسند اليه والمسند) متماثلان ، (٢) التشبث بثنائية الحقائق ، اي اما ان تكون صحيحة او خطأ (ويتضح ذلك في قانون استبعاد الوسط) ، (٣) قانون التناقض (ليس هناك شيء هو في الوقت نفسه «أ» وليس «أ») .

من هذا المدخل ولج السماتكس العام الى مختلف فروع الثقافة والعلم ، او لعل من الاصح القول ان السماتكس العام اكتملت صورته

بعد ان نهض على اساس من البحوث في شتى مضامير المعرفة منها ــ اضافة الى ما سبق ذكره ــ الرياضيات والمنطق الرياضي والفيزياء الرياضية وعلوم الحياة ومختلف مدارس علم النفس (فرويد ، يونغ، أدلر ، ادولف مير ، المدرسة السلوكية ، مدرسة الكشتالت) والطب النفسي • وفي كل من هذه العلوم تمت الاطاحة بالاعتقادات والافتراضات التي ظل الناس قرونا يتمسكون بها دون تمحيص او نقاش • ففي الفيزياء نسفت بعض المفاهيم الاساسية كمفهوم الحيز والوقت والمادة ، وفي علم النفس اقصيت المفاهيم التقليدية عن العقل، وفي الدراسات الاجتماعية دحضت المفاهيم التقليدية عن الفروق بين « المتوحشين » و « المتحضرين» ، وفي المنطق اطيح بالاعتقاد السابق بان القضايا اما ان تكون صحيحة او مغلوطة •• الخ •

وبمناسبة ورود كلمة (الخ) في السطر السابق ، فمن الطريف ان نورد هنا نموذجا لتفكير كورزيبسكي • يقول : ان جميع الجمل الخبرية يجب ان تصاحبها كلمة (الخ) (etc.) ضمنية لكي تذكر المرء بان « الخرائط » (ويعني بها الكلمات والرموز) لا تمثل جميع «الاقليم» (ويعني بها الاشياء الممثلة ــ بفتح الثاء ــ) • ان المثابرة على استعمال تعبير (الى آخره) بشكل اعتيادي ، في نظر كورزيبسكي ، يمنع الجزمية او الدوغماتية ، على اساس ان هذا التعبير سيذكرنا بصورة دائمة بانه نظرا الى ان اللغة عبارة عن نتاج لعملية انتقائية نقوم بها نحن ، لذا فليس ثمة جملة او مقولة نخبر بها عن احداث تتعلق باشياء موجودة في العالم الحقيقي يمكن ان تكون نهائية • ويلاحظ القارىء طبعا ان هذا الرأي يحمل بصمات الجانب الفلسفي للنظرية النسبية بشكل واضح •

ان مساهمة كورزيبسكي في السماتكس كبيرة جدا • فقد انعقد ، تتويجا لجهوده هو ، المؤتمر الاول للسماتكس العام في السنة ١٩٣٥ في ولاية واشنطن بالولايات المتحدة وفي العام ١٩٣٨ اسس كورزيبسكي (معهد السماتكس العام) في مدينة شيكاغو • وعقد

المؤتمر الثاني للسماتكس العام في دنفر بولاية كولورادو الامريكية. ومنذ تأسيس المعهد المذكور خطا السماتكس العام خطوات واسعة الى امام ، ووجدت فيه مختلف المعارف شيئا جديدا يتحداها ويستهويها معا . واستفاد من هذا العلم المربون وعلماء النفس والفيزياويون والصحفيون والعلماء والكتاب والشعراء والخطباء والفلاسفة ورجال الاعمال والسياسيون والدعائيون والمعلقون على الاخبار في وسائل الاعلام ، وغيرهم وغيرهم .

من الطبيعي ان اندلاع الحرب العالمية الثانية ادى الى تباطؤ الدراسات والابحاث السماتية . الا ان الانطلاقة الانفجارية لعلم السماتكس الحديث حدثت منذ حوالي العام ١٩٥٠ . ورب سائل يتساءل : لماذا هذا التوقيت ؟ اي ، ما هي العوامل التاريخية التي ادت الى هذا الاهتمام الشامل بعلم السماتكس في تلك الفترة بالذات ؟

هنالك عاملان رئيسيان مترابطان : الاول هو الدور الهائل الذي اخذت تلعبه اجهزة الاعلام في تسهيل وتعميم الاتصال بين الناس ، ضمن القطر الواحد وعلى النطاق العالمي ، وبالتالي فان وزن الكلمة في التأثير في حياة الناس تضاعف بما يتعذر حصره . والثاني هو الازمات ، الاقتصادية والاجتماعية ، التي مر بها العالم عموما والعالم الرأسمالي خصوصا ، والتي من مظاهرها الازمة الاقتصادية الخانقة في فترة الثلاثيات ، وظهور النازية والفاشية ، وازمة الضياع والتخبط وصراع القيم الاجتماعية والعبثية في صفوف المجتمعات البورجوازية الغربية بوجل خاص (ازمة الجيل الضائع ، كما كانت تعرف) . وفي ذلك يقول هايا كاوا في مقدمة الطبعة الثالثة لكتابه *Language in Thought and Action*

« ان الطبعة الاصلية لهذا الكتاب المنشورة في العام ١٩٤١ ، كانت من عدة وجوه بمثابة رد فعل تجاه اخطار الدعاية ، وخصوصا تلك الدعاية التي تجسدت في نجاح ادولف هتلر في اقناع الملايين بمشاركته آراءه الجنونية والهدامة . لقد كنت ، ولا ازال ، على اقتناع بان كل انسان يحتاج الى امتلاك موقف ناقد مثابر تجاه اللغة ـ لغته ولغات غيره على

حد سواء ــ ، وذلك تحقيقا لخيره هو واداء لالتزاماته كمواطن على نحو واف »[٣٦] .

اذن ففي خلال الخمس والعشرين سنة الاخيرة (١٩٥٠ــ١٩٧٥) ازداد الاهتمام بعلم السماتكس كما ونوعا بما لم يسبق له مثيل . وسيكون من الصعب عرض الابحاث والمؤلفات والمؤتمرات التي دارت حول محور السماتكس خلال هذه الحقبة من الزمن ، ولكن لا بد من الاشارة الى النواحي التي يختلف فيها السماتكس الحديث عن السماتكس الذي عالجه الرواد وتابعوهم .

لعل اهم نقطة اختلاف تتجلى في ان السماتكس الحديث قد تخلى نهائيا عن النظرة التاريخية المحض لمسائل اللغة عموما ودلالة الالفاظ بخاصة . ومع ان مسألة تتبع المسار التاريخي للتغيرات التي تصيب المعنى لا تزال تحظى بقدر كبير من اهتمام الدارسين اللغويين ، الا ان اغلبهم تحول باتجاه الدراسة الوصفية للسماتكس . وهناك نقطة اختلاف اخرى : أن اهتماما اكبر صار يعطى (وخصوصا في السنوات الاخيرة) لدراسة التركيب الداخلي للمفردات .. وهو ما غدا يسمى السماتكس التركيبي Structural Semantics كما ان لظهور علم الاسلوبيات Stylistics منذ بداية القرن الحالي اثرا عميقا على الدراسات السماتية . وهذا العلم الجديد يعنى بالقيم التعبيرية والاثارية evocative للغة . كما ان ظاهرة التخصص والمزيد من التخصص شرعت هي الاخرى تترك بصماتها على السماتكس فانتقل الاهتمام من المباديء العريضة العامة الى دراسة كل لغة على حدة .

وحتى بالنسبة للغة الواحدة ، لم يعد الاهتمام منصبا على دلالة الالفاظ المفردة حسب بل تعداه الى دراسة العلاقة بين دلالة الالفاظ المفردة ودلالة جمل واحاديث بكاملها . ومع تطور نظرية النحو المسماة (النحو المولد او الانتاجي او التحويلي generative grammar) وتأكيدها على التمييز بين (التركيب العميق deep structure)

و (التركيب السطحي surface structure)[٣٧] فان علماء السماتكس شرعوا يغوصون في اعماق اللغة الواحدة و/ او اللغات المتعددة لسبر اغوارها ، وصولا الى ايجاد نظرية متكاملة للسماتكس • وفي السنين الاخيرة « تأثر العديد من الدراسات التي نشرها علماء اللغة بالمنهج الموسوم بالتكويني componential approach في تحليل المعنى : وهو السعي لوصف تركيب المفردات في اطار مجموعة صغيرة نسبيا من عناصر المعنى عامة جدا (تسمى « المكونات components » او «المؤشرات» او « او السيميمات sememes ») ومختلف مركباتها المحتملة في اللغات المختلفة»[٣٨] •

ومن مظاهر اتساع الاهتمام بالسماتكس ، او بالاحرى من نتائجه ، تشعب الآراء واختلاف النظريات السماتية • غير ان السنوات الاخيرة شهدت تطورا ايجابيا باتجاه التوحيد فيما بين الاتجاهات المختلفة ، وكما يقول ليج G. Leech « فان من ابرز الانجازات الايجابية للاعمال الاخيرة في ميدان السماتكس هو التحرك نحو الاتفاق على اهداف السماتكس • فها ان كاتس Kats وفودور Fodor ولايونز Lyons ولام Lamb وفينريش Weinreich يبدون متفقين ، ضمنا او صراحة ، بان على علم السماتكس ان يفسر «الدلالة» بمعناها المتضمن في مثل هذه الافكار العامة : (انعدام المعنى meaninglessness) و (المطابقة antonymy) و (اعادة السبك او الصياغة paraphrase) و (التعريف) و (النفي)و (التضمين) ، وبأن من الممكن فصل هذه المهمة عن دراسة «الدلالة» حيثما يطبق هذا المصطلح على دراسة الآثار الاسلوبية والتداعي الانفعالي وغير ذلك »[٣٩] • ويتفق السماتيون ايضا على ان هذا العلم يعنى بالطريقة التي تتصل بها الكلمات والجمل بالاشياء والعمليات في العالم ، من ناحية ، وبالطريقة التي تتواصل بها الكلمات والجمل فيما بينها ضمن مثل هذه المفاهيم : (الترادف synonymy) و (الاستتباع entailment) و (التناقض contradiction) •

يقول بيرويش Manfred Bierwisch : « ان التحليل السمانتي للغة ما يجب ان يوضح كيف تفهم الجمل في هذه اللغة ، وكيف تفسر ، وكيف ترتبط بالحالات والعمليات والاشياء الموجودة في العالم • ان هذه المهمة العامة ، التي يمكن ايجازها بهذا السؤال : (ما هي دلالة الجملة س في اللغة ص ؟) ، لا يمكن الشروع بادائها بشكل مباشر ، بل يجب ان تجزأ الى مجموعة اسئلة اساسية »[٣٠] • ويضرب بيرويش مثالا على ذلك بمجموعة الجمل التالية :

(١) ان آلته الكاتبة ذات نوايا سيئة •
(٢) ان اختي غير المتزوجة متزوجة من اعزب •
(٣) كان جون يبحث عن the glasses [٣١] •
(٤) أ ــ ان الابرة اقصر مما يجب •
ب ــ ان طول الابرة غير كاف •
(٥) أ ــ كان العديد من التلاميذ غير قادرين على الاجابة عن سؤالك •
ب ــ لم يفهم سؤالك سوى القليل من التلاميذ •
(٦) أ ــ كم مكث ارجيبالد في مونت كارلو ؟
ب ــ مكث ارجيبالد في مونت كارلو ردحا من الوقت •

ان التحليل السمانتي للغة الانكليزية يجب ان يوضح بان الجملة (١) جملة شاذة دلاليا ، وان الجملة (٢) متناقضة ، وان الجملة (٣) فيها لبس ambiguity دلالي ، وان الجملتين (٤ــأ) و (٤ــب) مترادفتان في الدلالة ، وان الجملة (٥ــأ) تابعة للجملة (٥ــب) ، وان الجملة (٦ــأ) تتضمن او تفترض مسبقا الجملة (٦ــب) •

وعليه ، فلكي يفهم المرء معنى جملة ما وعلاقاتها الدلالية بالتعابير الاخرى فانه يتوجب الا تقتصر معرفته على معنى المفردات في تلك الجملة حسب ، بل الكيفية التي تتواصل بها • وهذا بدوره يعتمد على التركيب الاسلوبي للجملة • ويبدو ذلك واضحا في الجمل التالية التي تعتبر مكملة للجمل المدرجة اعلاه :

(٧) أ ــ كان من الصعب العثور على الصفحة المطلوبة •
ب ــ ان العثور على الصفحة المطلوبة كان صعبا •
جـ ــ كانت الصفحة المطلوبة صعبة العثور عليها •

ففي هذه الجمل الثلاث ، ثمة اختلافات اسلوبية ظاهرة ، ولكنها اختلافات في « التركيب السطحي » فقط • اما في « التركيب العميق» فهي متشابهة ان لم تكن متطابقة في المعنى ، وهو المهم في التفسير الدلالي •

اذن ، وبايجاز ، فان النظرية السماتية تقوم بالمهام التالية :ــ

١ ــ تشير الى التركيب الاسلوبي بشكل دقيق •
٢ ــ تبين ، بصورة منهجية ، معنى المفردات كل على حدة •
٣ ــ تبين كيف يتفاعل تركيب معاني الكلمات مع العلاقات الاسلوبية وصولا الى تشكيل التفسير النهائي للجمل •
٤ ــ تنوه بالكيفية التي ترتبط بها هذه التفسيرات بالاشياء التي يدور الحديث عنها[٣٢] •

قبل الختام ، دعوة الى البداية :

في ما تقدم ، حاولنا ان نستعرض المراحل التي مر بها تطور السماتكس ثم لخصنا المهام التي تنهض بها النظرية السماتيةالحديثة• وبالطبع فان هذا الاستعراض ، او اي استعراض أوسع ، لن يغني الباحث العربي عن الغوص الاعمق في تفاصيل السماتكس والاطلاع على نماذج من الدراسات السماتية المنجزة في اللغات الاخرى اذا شاء ان يستفيد الفائدة المثلى من هذا العلم لغرض تطبيقه ــ كليا او جزئيا ــ على لغتنا العربية • ولعله واجد في قائمة المصادر الملحقة بهذه المقالة دليلا هاديا في بحثه اللاحق •

ومع ذلك ، فلربما بقي ثمة من يسأل : وهل هناك مثل هذه الحاجة القصوى الى اخضاع اللغة العربية الى دراسات سماتية بمفهومها التاريخي (عند بريل وتابعيه) والحديث ؟ وجوابنا الفوري:

اي نعم • وذلك لاسباب عديدة نوجز ابرزها في ما يلي :

اولا ــ ان من اهم اهداف السماتكس : الدقة في التعبير والفهم• وفي بلادنا العربية (كما هو الحال في عشرات البلدان النامية الاخرى) هناك ظاهرة تكاد تكون عامة مؤداها تسيب واضح في انتقاء المفردات والتراكيب التي تدل على الفكرة المراد التعبير عنها ، ويقابله بالمثل تسيب آخر في الفهم الدقيق لما يعنيه القائل بمفردة او تعبير ما• وطبيعي ان هذه الظاهرة ناجمة عن سبب او اكثر ، كأن تكون ناشئة عن اختلاف دلالة اللفظ او التركيب لدى القائل عنها لدى السامع ، او ان يكون التفاوت بين القائل والسامع تفاوتا ثقافيا ، او ان الفرق يكمن في اختلاف البيئة او اللهجة •• او غيرها من الاسباب • وهذه الظاهرة جديرة بالبحث والتقصي المنهجيين استهدافا لوصف العلاج •

ثانيا ــ ان توجه بلادنا نحو الاخذ باسباب العلم الحديث يجب ان يتخذ طابعا شموليا • فكما ان المعنيين بشؤون العلوم الصرفة والتطبيقية والتكنولوجية يصعدون من جهودهم لمواكبة الشعوب الاخرى ، فان المختصين بجوانب الثقافة الاخرى مدعوون للاسهام بنصيب اوفر في مجال اختصاصهم ، وتشكل اللغة العصب الحيوي والمشترك بين جميع العلوم والمعارف • يقول لاسويل Harold D. Lasswell : « وبصورة عامة ، فمع تضاعف عدد السكان واتجاه الفعاليات نحو التخصص ، فان اهتماما متعاظما اصبح يولى نحو السيطرة على ما يفعله الناس • فثمة الآن كتيبات ارشادية لمدراء الاعمال ترشدهم الى الكيفية التي يتعاملون بها (لغويا) مع المساهمين والزبائن والنقابات والمشرعين وفئات الناس الاخرى »[٣٣]• فاذا كان هذا هو الحال في البلدان المتقدمة ، أفليس جديرا بنا ان نبدأ الطريق المؤدية الى بلوغ ذلك المستوى ؟

ثالثا ــ ان موجة انتشار وسائل الاعلام الغامرة اجتاحت بلادنا وبوتيرة عالية جدا في السنوات الاخيرة • ولهذا فان الاحتراس في استعمال اللغة يكتسب اليوم اهمية كبرى وفي هذا المضمار يلعب

السما تتكس دورا حيويا • ويرتدي هـذا الدور اهميـة خاصة في الظروف الدولية التي يمر بها قطرنا والوطن العربي بوجه عام ، واعني بها ظروف المواجهة مع اعداء متمرسين في فن التأثير على الجماهير نوعا وكما • وحينما تكون نسبة عالية من هذه الجماهير امية ، ونسبة اقل منها قاصرة في تعليمها ، فان التحوط من خضوعها للتأثيرات المضللة الآتية عبر قنوات وكالات الانباء المعـادية والمطبوعات والافـلام (التلفزيونية والسينمائية) والاذاعات وغيرها من وسائل الاعـلام يكتسب اهمية استثنائية ويدعو بالحاح الى امرين : رفع الوعي الثقافي عموما واللغوي خصوصا لدى المستهدفين (بفتح الدال) بوسـائل الاعلام ، وفرض ضوابط على هذه النافذة الخطيرة في مرحلة تطورنا الراهنة • وكمثال : لاحظوا كيف ان وكالات الانباء المعادية لم تستعمل كلمة « فدائيين » منذ بداية العمل الفلسطيني والعربي ، بل درجت على استعمال كلمة «ارهابيين» • وليس خفيا على القاريء التشويه الهائل الذي تؤديه هذه الكلمة ، وعشرات بل مئات غيرها ، للنضال الفلسطيني • وكمثال آخر : معروف انه منذ اواخر العقد السادس من هذا القرن بدأت جهود لتخفيف حدة الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي والغربي • وبالنسبة للدول الاشتراكية فان ذلك بمثابة تطبيق لمبدأ التعايش السلمي peaceful co-existence • وفي السنوات الاخيرة تتوجت هذه الجهود بعقد عدد من المعاهـدات والمواثيق ، كتثبيت الحدود في اوربا والحد من انتشار الاسلحة النووية ..الخ • وبالنسبة لوسائل الاعلام الغربية فان هذه السياسة لا تسميها تعايشا سلميـا بـل détente اي (تخفيف للعلاقات المتأزمة والتوترات بين الشعوب) ـ على حد تعريف معجم وبسترص٢٢٦ ـ اي ما يمكن تسميته في العربية « انفراجا دوليا » • غـير ان بعضا من وسائـل الاعلام الناطقة باللغة العربية تسميه « سياسة الوفـاق بين القوتين الاعظم » بكل التضليل المقصود الذي تحمله هذه التسمية •

وقبل ان نختتم هذا البحث ، نود ان نعرض بعضا من الافكـار التي تعن لنا والتي نطرحها هنا لذوي الاختصاص في اللغة العربيـة

كمواضيع محتملة للبحث استهداء بالدراسات السماتية :

فكرة (أ) ـ لماذا عني الشعر العربي القديم (والكثير من المعاصر) بالموسيقى اللفظية دون المعاني ؟ الاجابة على هذا السؤال تنطوي بلا ريب على اجراء دراسة تاريخية للامر من الزاويتين الفونولوجية والسماتية (الصوتية والدلالية) ولكن ، لماذا استمرت هذه الظاهرة حتى يومنا هذا ؟ هل الموسيقى في الشعر (وفي النثر ايضا) ناتجة جزئيا عن كثرة حروف العلة والحركات في اللغة العربية ؟ وهل يرد هنا رأي يسبرسن Otto Jespersen الذي مؤداه ان كثرة حروف العلة (والحركات) في لغة ما ظاهرة تدل على ان متكلمي هذه اللغة لا يتصفون بشدة المقدرة والقوة ، وبالعكس فان قلتها في لغة اخرى دليل على بأس اهلها وصراعهم الشاق ضد الطبيعة وبني جلدتهم معا ؟ (٣٤) هل من متصد لهذا الرأي ؟ ام ان عناية الشعر العربي بالالفاظ دون المعاني يعكس مستوى ثقافيا معينا في مرحلة معينة من تاريخ المجتمعات العربية ؟ المطلوب : جواب علمي .

فكرة (ب) ـ ماذا عن ظاهرة كثرة الترادف في اللغة العربية ؟ هل الالفاظ التي يزعم بانها مترادفة هي مترادفة فعلا وبشكل دقيق ؟ ام ان هناك فروقا بين المترادفات في ظلال معانيها كما قال بعض الاشتقاقيين من اللغويين العرب كأبن دريد وابن فارس ؟ (٣٥) هل حقا ان للاسد نحو ٥٠٠ اسم وللثعبان ٢٠٠ وللداهية ٤٠٠ وللعسل ٨٠ وللسيف ٥٠ ؟ (٣٦) .

فكرة (جـ) ـ كيف يفسر التسيب الواضح في استعمال « أل » التعريف في العربية ؟ ان هناك فرقا دلاليا واضحا بين اسم معرف بأل واسم مجرد منها . اذن ، كيف نفسر قول القائل على سبيل المثال :

ان فلانا يحتاج الى الكثير من الجهد .
بدلا من قوله :
ان فلانا يحتاج الى كثير من الجهد .

واليوم ، توجد ضجة وصراع محتدم (يحمل في طياته حتى احتمال نشوب حرب او سلسلة حروب اخرى) بسبب غياب « أل » التعريف في النص الانكليزي لقرار مجلس الامن المرقم ٢٤٢ حول الزام « اسرائيل » بالانسحاب من (اراض عربية محتلة) بدلا من النص على الانسحاب من (الاراضي العربية المحتلة) . وبهذه المناسبة ، ولبيان الاهمية التاريخية لهذه الاداة نذكر هنا ـ نقلا عن الموسوعة البريطانية ـ ان اداة التعريف كانت غير موجودة في اللغات الهندية ـ الاوربية ، مثلا . ولا تزال بعض اللغات المحافظة (كاللغة البلطيقية والسلافونية) بدون اداة (باستثناء البلغارية) . ولقد اسهم هذا الاختراع النحوي في نمو التجريد والتخصص[٣٧] .

فكرة (د) ـ ماذا عن ظاهرة قلة المعاجم العربية الحديثة ؟ وكيف يفسر قصور الموجود منها مقارنة بنظائرها في اللغات الاخرى ؟ وفي هذا المجال نحيل القاريء الى تقرير المستشرق فيشر المقدم الى المجمع اللغوي في مصر عن المعاجم القديمة التي قال بانها اضطربت في شرح مدلولات الالفاظ واتصفت بعدم الدقة في الشرح ، كما اختلف اصحابها في مدلولات كثير من الالفاظ مما ادى الى سوء الفهم لكثير من النصوص علاوة على ان المعاجم القديمة خلت من البحث في تاريخ الكلمة وتطور الدلالة فيها وتسجيل اول استعمال لها وآخر من استعملها من الشعراء او الكتاب[٣٨] . فاذا كان هذا حال المعاجم العربية القديمة ، فهل تلافى حديثها تلك النواقص ؟ اذن دونكم هذا المثال : اثناء كتابة هذا البحث نقب كاتبه في (المنجد) للاب لويس معلوف ـ وهو اكثر المعاجم العربية الحديثة تداولا ـ عن كلمة «اعراب» كأسم ، وذلك لحاجة آنية ، فلم يعثر عليها !

فكرة (هـ) ـ ما هو الاثر الذي تلعبه صيغ الافعال العربية في التعبير الدقيق عن فكرة الزمن ؟ هناك جانبان ، في رأينا ، جديران بالتقصي : الاول ـ الاسباب التاريخية لقلة عدد الصيغ في العربية (ماضٍ ، مضارع ، امر فقط) مقارنة بكثرتها النسبية في لغات اخرى

(في الانكليزية مثلا : ماضٍ ، مضارع ، مستقبل ، امر ، ثم تفرعاتها الى البسيط والتام والمستمر والشرطي .. الخ) . هناك رأي يقول : ان صيغة الماضي تظهر في اللغات قبل المستقبل بمدة طويلة . المستقبل لا يظهر الا في مرحلة متقدمة من الحضارة ، ويظل مع ذلك مهزوزا ولا يتطور الا بصعوبة بالغة. ذلك لان الانسان يفكر بالاحداث القادمة باعتبارها احداثا اما يرغب هو في حدوثها (سوف اذهب) او يجب ان تحدث (لسوف اذهب) او قد تحدث (قد اذهب)[٣٩] . اما الجانب الثاني فهو : في غياب الصيغ المتفرعة الاخرى ، كيف يتسنى للعربي ان يعبر عن الاحداث التي تقع ضمن الازمان التي ليس لها صيغ في العربية ؟ وما اثر ذلك من الناحية السماتية ؟ حين يقول امرؤ :

عشت في بغداد عشر سنين .

فهل يعني هذا ان السنين العشر هذه كانت ضمن حقبة انتهت ضمن الماضي (اي انتهت قبل سنتين او اكثر او اقل مثلا) ، ام يعني انه لا يزال عائشا في بغداد حتى لحظة كلامه ؟

فكرة (و) ــ ثمة بعض الكلمات في كل اللغات (وليست العربية بمستثناة) تتدهور دلالتها وتنحط بمرور الزمن ، واحيانا يصيبها الابتذال ، فما هي الجذور التاريخية والاجتماعية لهذه الظاهرة في لغتنا ؟ وهل هناك نمط منهجي محدد المعالم لهذا التدهور ؟ وهل لتقبل الناس للفظة معينة او تصورهم منها الاثر الاكبر في ذلك ؟ يذكر كاتب هذا البحث رواية صديق له كان يراقص سيدة انكليزية في مكان مكتظ اشتدت فيه الحرارة ، حين لاحظ تفصد العرق في جبينها . فعرض عليها التوقف عن الرقص والعودة الى المائدة لانها « بدأت تعرق You are sweating » فما كان من السيدة الانكليزية الا ان قالت معلقة : « لقد افسدت مجاملتك باستعمال هذا الفعل الشائن sweating بدلا من perspiring » ! وعلم المسكين

فيما بعد ان كلمة sweat اصابها الابتذال فلم تعد تطلق على ظاهرة تفصد العرق من جبين سيدة تراقص !

وفي العربية امثلة مشابهة : كانت كلمة « الحاجب » تطلق في دولة العرب بالاندلس على من يسمى اليوم رئيس الوزراء • فأين امست مكانتها في عصرنا الحاضر ؟ وكلمة «الكرسي» استعملت بمعنى العرش في الآية القرآنية الكريمة « وسع كرسيه السموات والارض» واليوم غدت تطلق حتى على كرسي اعتراف المذنبين !

ولعل من المناسب اقتباس القول التالي للامام عبدالقاهر الجرجاني في هذا الشأن اذ يقول في انحطاط التشبيه : « فانك تعلم ان قولنا (لا يشق غباره) الآن في الابتذال كقولنا : لا يلحق ولا يدرك وهو كالبرق ونحو ذلك • الا انا اذا رجعنا الى انفسنا علمنا انه لم يكن (مبتذلا) كذلك من اصله وان هذا الابتذال اتاه بعد ان قضى زمانا بطراءة الشباب وجدة الفتاء وبعزة المنيع ، ولو قد منعك جانبه وطوى عنك نفسه ، لعرفت كيف يشق مطلبه ويصعب تناوله »(٤٠) •

فكرة (ز) ــ وهناك ايضا مسألة تعدد المعاني للمفردة الواحدة multiplicity of meaning اي ما يسمى بالمشترك اللفظي • او ليس هذا الجانب جديرا بدراسته دراسة لغوية حديثة ؟ لنأخذ كلمة «عملية» على سبيل المثال : اذا نطق بها طبيب انصرف ذهن السامع الى صورة مريض ملقى على طاولة في مستشفى بين يدي جراح ،واذا قالها جندي تخيلنا جيشا او هجوما عسكريا ، واذا فاه بها تاجر علمنا انه يعني صفقة تجارية ، واذا اتت على لسان معلم حساب فهي عملية جمع وطرح •• الخ • وهنا يثار سؤال او اكثر : ما الذي جعل هذه اللفظة الواحدة تحمل هذا العدد من المعاني ؟ هل اتخذ تعدد المعاني هذا مسارا واحدا بالنسبة لجميع الالفاظ العربية المشابهة ، ام ان هناك خصائص مميزة ومسارات متنوعة ؟ وقبل هذا وذاك ، هل يلعب المجاز دورا في الاستعمالات المختلفة ذات الدلالات المتباينة للفظة الواحدة ؟

فكرة (ح) ـ وثمة مادة اخرى تصلح لبحث آخر هي : مسألة المزاوجة او الاتباع اللفظي tautology في اللغة العربية ، وهي الحالة التي تكون فيها عبارة متكونة من كلمتين متتابعتين تكون الثانية منهما بلا معنى ولا يمكن لها ان تستعمل بمعزل عن الاولى ، وانما يؤتى بها لتقوية اثر الكلمة الاولى عن طريق ترديد اصوات مماثلة . منها ، على سبيل المثال لا الحصر : هنيئا مريئا ، هذر مذر ، خبيث نبيث ، سمج لمج ، عطشان نطشان ، عريض اريض ، قسيم وسيم ، شحيح نحيح .. الخ .

فكرة (ط) ـ ما هو الدور الذي تلعبه ازدواجية اللغة العربية (الفصحى والعامية او اللهجة) في فهم دلالات الالفاظ ، وما هو الاثر الذي تتركه هذه او تلك على الاخرى في هذا المضمار ؟

الهوامش

(١) اثرنا استعمال كلمة Semantics كما هي دون ترجمتها الى « علم الدلالة » او « علم المعنى » او « دلالة الالفاظ » وذلك لامرين : تثبيتا لصورة هذا الاسم لدى القارىء العربي ، وتجنبا للبس الذ. قد تحدثه هذه الترجمات ، خصوصا اذا اخذنا في الاعتبار مدلولاتها التاريخية في اللغة العربية .

(2) Walpole, Hugh R., *Semantics*, New York, 1941, p.3.

(3) Gray, Louis H., *Foundations of Language*, New York, 1939, p. 8.

(4) *Encyclopedia Britannica*, 1974, vol. 16, p. 506.

(5) *Encyclopedia Americanna*, 1960, vol. 24, p. 546.

(6) Moore, Robert H., *General Semantics in High School English Programs*, U.S.A. 1957, p. 10.

(7) Hayakawa, S. I., 'Semantics and General Semantics', *ETC.*, vol. IV, 1957, p. 73.

(٨) وسنعرض للسمانتكس العام في مكان لاحق .

(9) *Webster's Seventh New Collegiate Dictionary*, 1965, p. 786.

(١٠) يعرف معجم وبستر (١٩٦٥) الاتيمولوجي بما يلي : « تاريخ اي شكل لغوي (كالكلمة مثلا) حسبما يتبين من تعقب تطور ذلك

الشكل اللغوي منذ تسجيل حدوثه لاول مرة في اللغة التي يوجد ضمنها ، وعن طريق تتبع تنقله بين لغة واخرى ، وتحليله الى اجزائه المكونة ، وتشخيص اقرانه في اللغات الاخرى او عن طريق تقفي اثره مع اقرانه في شكل سالف عام موجود في لغة سالفة » . ص ٢٨٦ .

(١١) من المناسب ان نذكر هنا ان مصطلح linguistics نفسه تشكل في ذلك الوقت ، فظهر في اللغة الفرنسية لاول مرة في العام ١٨٢٦ la linguistique وفي الانكليزية في العام ١٨٣٧ بدون حرف الـ s النهائي .

(١٢) يقول الشاعر الرومانسي الانكليزي شيلي Shelley في (برومشيوس طليقا ـ الجزء الاول ـ) : « الكلمات اشبه بغيمة من الثعابين المجنحة». ويقول مواطنه وردزورت Wordsworth :«ان قوة خيالية تتحكم في حركات الرياح اللامرئية التي ينطوي عليها سحر الكلمات » (المقدمة ـ الكتاب الخامس) .

(١٣) مقتطف ترجمة اولمان Stephen Ullmann الى الانكليزية من مقالة لبريل بالفرنسية بعنوان

Les Lois intellectuelles du langue

نشرت في مجلة L'Annuaire de L'Association pour L'encouragement des etudes grecques en France.

(14) Breal, Michel, *Semantics: Studies in the Science of Meaning*, translated by Mrs. Henry Cust, New York, 1964, p. 8.

(15) Ibid, p. 5.

(16) Ibid, p. 24.

(17) Ibid, p. 25.

(١٨) أنيس ، د . ابراهيم ، دلالة الالفاظ ، مصر ، ١٩٦٣ (ص٧)

(19) Ogden, C. K. and Richards, I. A., *The Meaning of Meaning*, New York, 1930.

(20) Richards: *Principles of Literary Criticism, Practical Criticism*, and *How to Read a Page.*
Ogden: *Basic English*, and *Bentham's Theory of Fiction.*

(٢١) ايوب ، د.عبدالرحمن ، التطور اللغوي ، مصر ، ١٩٦٤ (ص٥٤)

(٢٢) الفرد كورزيبسكي (١٨٧٩ ـ ١٩٥٠) عالم ومهندس بولندي ، عاش في الولايات المتحدة منذ العام ١٩١٧ .

(٢٣) في الحقيقة ان الصفة الحرفية التي اطلقها عليها كورزيبسكي هي (سابقة للعلمية pre-scientific) .

(24) Korzybski, Alfred, *Science and Sanity*, U.S A. 1933, p. 12.

(25) *Encyclopedia Britonnica*, 1966, vol. 20, p. 313.

(26) Hayakawa, S. I., *Language in Thought and Action*, 3rd edition, 1972, pp. viii-ix.

(٢٧) المقصود بازدواجية التركيب هذه ان جملتين (او تعبيرين) ، او اكثر ، على سبيل المثال ، قد تبدوان مختلفتين سطحيا من حيث التركيب ولكنهما في اعماقها متشابهتان او متماثلتان . او ان الحالة قد تكون بالعكس ، طبعا . مثـــلا :

- اكل احمد التفاحة .
- التفاحة إكلها احمد .

«ظاهر» الجملتين مختلف من حيث التركيب ، الا ان « تركيبهما العميق » واحد من حيث ان (الآكل) هو (احمد) وان ماأكله هو (التفاحة) لاغير في كلا الجملتين .

(28) Lyons, John, *New Horizons in Linguistics*, U.K., 1970, p. 166.

(29) Leech, Geoffrey N., *Towards a Semsntic Description of English*, U.K., 1969, p. 4.

(30) Bierwisch, Manfred, *New Horizons in Linguistics*, p. 167.

(٣١) ابقينا على الكلمة glasses دون ترجمتهـا ، لانهـا ذات معنيين : النظارات ، والاقداح الزجاجية . وقد اورد الكاتب هذه الكلمة عمدا ليبين انطواءها على لبس في دلالة كلمة glasses بالنسبة للسامع او القارىء .

(32) Bierwisch, op. cit., pp. 167-168.

(33) Lasswell, Harold D., *Language of Politics*, U.S.A., 1965, p. 4.

(34) Jespersen, Otto, *Growth and Structure of the English Language*, U.K., 1945, p. 3.

(٣٥) انيس ، د. ابراهيم ، المصدر نفسه ، ص٢١١ .

(٣٦) انيس ، د. ابراهيم ، المصدر نفسه ، ص٢١١ .

(37) *Encyclopedia Britannica*, 1966, vol. 20, p. 313 B.

(٣٨) انيس ، د. ابراهيم ، المصدر نفسه ، ص٢٤٩ .

(39) *Encyclopedia Britannica*, 1966, vol. 20, p. 313 C.

(٤٠) الجرجاني ، الامام عبدالقاهر ، اسرار البلاغة في علم البيان ، الطبعة الرابعة ، مصر ، ١٩٤٧ ، ص١٦٦ .

مراجع لمزيد من البحث

(علاوة على ماورد في الهوامش)

١ ـ انيس ، د . ابراهيم ، في اللهجات العربية ، مصر ،١٩٥٢.

٢ ـ = ، من اسرار اللغة ، مصر ، ١٩٥٨ .

٣ ـ = ، موسيقى الشعر ، مصر،١٩٦٥.

٤ ـ ايوب ، د . عبدالرحمن ، اصوات اللغة ، مصر ، ١٩٦٣ .

٥ ـ = ، التطور اللغوي ، مصر ، ١٩٦٤ .

٦ ـ = ، محاضرات في اللغة ، العراق ، ١٩٦٦ .

٧ ـ الجرجاني ، الامام عبدالقادر ، اسرار البلاغة في علم البيان، مصر ، ١٩٤٧ .

٨ ـ = ، دلائل الاعجاز ، مصر ، ١٩٥٠.

9. Bloomfield, L., *Language*, U.S.A., 1933.
10. Brown, Roger W., *Words and Things*, U.S.A., 1958.
11. Carnap, Rudolf, *Introduction to Semantics and Formalization of Logic*, U.S.A., 1959.
12. *Meaning and Necessity*, U.S.A., 1956.
13. *Philosophy and Logical Syntax*, U.K., 1935.
14. Chase, Stuart, *The Tyranny of Words*, U.S.A., 1955.
15. Chomsky, N., *Current Issues in Linguistic Theory*, Holland, 1965.
16. *Language And Mind*, U.S.A., 1958.
17. *Syntactic Structures*, Holland, 1957.
18. Filmore, Charles J., and Langendoen, D. Terence (eds.), *Studies in Linguistic Semantics*, U.S.A., 1971.
19. Fodor, J.A. and Katz, J. J. (eds.), *The Structure of Language*, U.S.A., 1964.
20. Greenberg, J. H. (ed.), *Universals of Language*, U.S.A., 1963.

21. Hammel, E. A. (ed.), *Formal Semsntic Analysis*, U.S.A., 1968.
22. Katz, J.J., The *Philosophy of Language*, U.S.A., 1966.
23. Katz, J. J. and Fodor, J. A., "The Structure of a Semantic Theory" *Language*, 1963, 39, pp. 170-210.
24. Kiefer, F. (ed.), *Studies in Syntax and Semantics*, U.K., 1969.
25. Lyons, John, *Structural Semantics*, U.K., 1963.
26. Linsky, L. (ed.), *Semantics and Language Studies*, U.S.A., 1952.
27. Salmon, L. B., *Semantics and Common Sense*, U.S.A., 1966.
28. Stern, G., *Meaning and Change of Meaning, with Special Reference to the English Language*, Germany, 1931.
29. Ullmann, Stephen, *Semantics*, U. K., 1962.
30. *The Principles of Semantics*, U.S.A., 1959.
31. *Words and Their Use*, U.S.A., 1951.
32. Welby, V., *What Is Meaning*, U.S.A., 1903.
33. Weinreich, U., *Languages in Contact*, U.S.A., 1959.
34. Ziff, P., *Semantic Analysis*, U.S.A., 1960.

هذا ، علاوة على عدد من المقالات والبحوث يضيط المجـال بذكـر المطبوعات التي نشرت فيها والتي من بينها الدوريات التالية :

Journal of Linguistics; Word; English Studies; Linguistics; Foundations of English; Universals of Language; IJAL; Language; Lingua.